سر من اسرار العربية

نرجو أن نصل الى حقيقته في السليقة العربية

لمحمود محمد شاكر

فرغنا في الكلمة السالفة من تقرير مخارج الحروف العربية ومداوجها وصفة مواقعها من الحلق واللسان وغار الحنك الأعلى واللثايا والاضراس واللثة والخياشيم وسائر الفم وما يجيء به وأبنا عن مبلغ تباعدها وتقاربها وما يأتلف منها في المخارج وما لا يأتلف، ورتبناها على مجرى ذلك بالتحرّي والضبط والاتقان، ثم قسمناها لك على وجوه الاشتراك في مدى الصوت وما يلحقها من الاطباق والانفتاح، والاستعلاء والانخفاض، وما يلابسها من الرخاوة والشدة، وجعلنا ذلك كله مقدمة تقول في « علم معاني أصوات الحروف »، ونحن « ان شاء الله » نذكر لك بعض ما عرض لنا من الرأي في هذا العلم

ونحن نريد ان نأخذ معاني هذه الاصوات التي تدل على حروف العربية من جهة طبيعة الانسان حين يريد العبارة عن شيء في نفسه أحسّ به او عزم عليه، محاكياً او منبهاً أو مصوّراً أو مقرّباً للمعنى الذي يريده بالجرس الصوتي المفرد الذي يتبادر اليه فيحاوله ويعالجهُ ويتهجم عليه. ويحسن ان نبدأ أن ذلك على ترتيب القسمة التي عرضناها في الكلمة السالفة متتبعين مدارج الأصوات من أقصى الحلق، مؤلفين بين الأصوات المشتركة الصدى، المتقاربة المقاطع والمخارج

وأول ذلك ما يسمونه « الحروف الحلقية »، وهي حروف المخارج الثلاثة الأولى، وهي مرتبة على الترتيب :—

الهمزة (١)، والالف (٢)، والهاء (٣) — والعين (٤)، والحاء (٥) — والغين (٦)، والخاء (٧)

فأنت اذا أردت ان تعرف معاني هذه الحروف فترجع الى الدورة الأولى من العبارة، وما تحملك عليه إرادة التعبير من التفريج عن نفسك بالنطق او الصوت الذي هو قوة كامنة في الانسان لابدَّ لها من العمل والمطاوعة حين تجد الحافز الذي يدفعها الى تقرير طريقها في العمل

وأول ذلك ان تنظر الى الحاجة التي تدفع الى التعبير ، ولعلَّ من أوائل الحاجات التي يُدفع الانسانُ للتعبير عنها النداء والتعجُّب والتأوُّه والأنينُ والاشارةُ والتنبيهُ ، وغير ذلك مما تدعو اليه معاناة الحياة الفطرية الاولى التي بدأ الانسان بها عمله على الارض . فاذا استوعبت أمثال هذه الضروورات وجعلت تأخذُ نفسك بتدبرها في فطرة الانسان رأيتَ ان النداء مثلاً يعتمد على أصوات الحلق المقذوفة من الجوف مطلقة في الهواء لتبلغ بالصوت أقصى ما يطيقه تدافعُ الهواء الذي يحمله . وكذلك الاشارة والتنبيه يتطلبان من الشعور والتنبه إرسال الصوت خارجاً من الحلق الى حيث يلاقي الهواء المقابل لفم الانسان . ثم اذا أنت أردت كل حرف مما يتجلى من صداه المقرون به — على المعاني الأولى — استطعت ان تقرِّر لصدى الحروف معاني من النفس او من المحاكاة او من التمثيل للحركة او الصوت المسموع او غير ذلك

ونحن انما نتكلم عن العربية ، لأنها في اعتقادنا — بعد الذي مارسناه من معانيها — أدقُّ اللغات احتفاظاً بالمعاني الفطرية للحروف ، بل هي اكثر اللغات احتفاظاً بحركة الانسان الأوَّل في الاشارة الى المعاني ، وذلك حين يريد ان يقرن الصوت بحركة دالَّة على معنى من الاشارة يُفهِم به المتكلمُ مخاطبَه ما يريد ان ينبِّهه اليه او ان يحمله على فهمه . فنحن نختصر لك طريق الكلام عن الحروف المجردة وحدها بادماج ذلك في تركيب الحروف بعضها مع بعض ، غير مخلِّين بالبيان عن المعاني التي يتحملها الحرف الواحد من حروف هذا اللسان . ولا يهولنَّك ما سنقدم عليه ، ولا يذهبنَّ بك انا لا نستطيع ان نجري اللغة كلها على هذا الأصل ، كلاَّ ، بل نحن نستطيع ذلك . ونستطيع ان نحاول معرفة الاطوار الاجتماعية والعقلية والخلقية واللسانية والمدنية التي مرَّت بالشعب العربيّ . وهو شعبٌ كما تعلم لا يزال محصوراً بين الحدود التي ضربتها عليه الصحراء ، ولا يزال حيًّا على تَمَطُّرٍ من العيش لم يدخله كثير من التبديل ، وإن كان قد اختلط بما ادفق اليه من نتاج الحضارات الأخرى التي اختلطت ببعض أمواجه ثم ارتدَّت اليه

لنأخذ منها الآن :— الهمزة والهاء والألف . وهي الحروف الحلقية المطلقة التي تُصوِّت حين تلاقي الهواء ولا يقف في سبيلها ما تُرتطِمُ به من الثنايا أو الاضراس أو الشفة ، ولا يعمل معها اللسانُ عملاً في تكوين صداها أو جرسها — واعلمْ انا لن نعرف كثيراً في هذا الذي أردناه بين الهمزة والألف ، وانا سوف نجعل عملهما في العبارة واحداً ، هذا على أن الألف في أصل معناها تخالف الهمزة من وجوه كثيرة . وليس هذا موضع بيان الفروق بينهما ، وأحق بذلك ما نزيده ان شاء الله من الكلام عن الواو والياء والالف

فهل تنكر ان الرجل اذا خاف أو فزع أو رغب أن ينادي أو ان يشير — وهو ناقص

الآلة النطقية — فأول ما يبدأ به أن يقذف الصوت مفصولاً من الحلق بأقصى ما يستطيع، كلاً. واذن فالهمزة الممدودة هي الصدى الصوتي الذي يراد به التنبيه والاشارة والنداء. وكذلك هو في العربية. فالهمزة في العربية لا تزال تحتفظ بجميع هذه المعاني وما يتشعب منها تقول: «أحمد» تريد «يا محمد» وانما تنشئ الحرف «يا» في النداء بعد، لانه تسهيل لمجرى الهمزة وتليين لها، ثم انقلب بعدُ حرفاً من الحروف «الشجرية» التي في مفرج الفم كالجيم والشين لأسباب أنت بعد خروج اللغة من الطور الاول، والا فان الاصل الذي لا شك فيه ان الياء أقرب الى الحروف الحلقية منها الى الحروف الشجرية، فانطق «آه»، «وياء» تجد صدق ذلك[1]

ثم انظر، فالهمزة حرفٌ للاستفهام كقولك: أأنت؟، وهي حرف للتعجب من طريق الاستفهام. وقد احتفظت بها العربية في وجوه كثيرة اخرى كالتفضيل والتعجب[2] كقولك ما أحسنَها، وهو أكرم من فلان، فاثبات الهمزة والاتيان بها في هذه الابواب مأخوذ من الاصل الذي اقيم عليه معنى الحرف من فطرة الانسان. فكأنهم أرادوا — بالبدء بها — اظهار المعنى الذي يحمله صدى الصوت من الاستفهام والتعجب، والتفضيل فرعٌ من تعجبك من الشيء واستكبارك له. وكذلك احتفظت العربية بهذا الحرف في اكثر حروف الاستفهام كقولهم «أين» «أنّى» وما يدانيها كقولهم «أم» كذلك فيما يقارب ذلك من المعاني كما في قولهم «أو»

ويشترك مع الهمزة حرفٌ آخر هو قريب منها، وهو «الهاء»، في اثبات بعض العرب يقولون في الاستفهام في «أزيد؟» «هزيدٌ؟». وكذلك وقعت هي في «هَل؟» و«هلا!» وان كان اكثر موردها على التنبيه والدلالة والاشارة، كما وقعت «في هذا» و«هؤلاء» و«هي»، و«هو» وهذان الحرفان الأخيران، وان عدّهما النحاة من الضمائر وأجروا عليهما احكاماً، الا انهما في اصل معناهما للاشارة بغير شك. ومثل ذلك قال المفسرون في قوله تعالى «وآتوا النساء صدُقاتهنّ نِحلةً فإنْ طِبْنَ لكم عن شيء منهُ نفساً فكلوهُ هنيئاً مريئاً» ... «الضمير في منهُ» جار مجرى اسم الاشارة كأنه قيل «عن شيء من ذلك»[3]

---

(١) أما العلة في أن الياء صارت بعد حرفاً من الحروف الشجرية، فسنعرض لها في كتابنا عن سر العربية ان شاء الله

(٢) ومن باب ذلك الهمزة في أوائل أوزان جموع التكسير أيضاً في مذهبنا

(٣) اعلم أنا لا نريد بذكر هذا المثال لا ان نعرض لمثل هذه «ها» هي الهمزة للاشارة، ثم استترت الضمائر بعد ذلك وجرى حكمها في النحو العربي جرى غير الذي جرى عليه حكم الاشارة، وكما لا نخلط هذا بما هو النحو الآن، وما نتوهمه من معاني الصدى الصوتي الفارق للحرف

وكذلك جرت العربُ على سُنَّة إبدال الهمزة هاء والهاء همزة لتقاربهما في الدلالة كما يقولون في « أراق ، وهراق » و « لأنك ، ولَسْنَك » وغير ذلك مما لا نريد استقصاءهُ الآن

***

وانت اذا اخذت الضمائر اول ما تأخذ وجدت الاشارة فيها ظاهرة ، فما قولهم « أنا » الا إبانةٌ عن الصوت « أن » [1] المدغم في الخياشيم مقترناً بإشارة المتكلم الى نفسه بيده ثم تركوا الاشارة وعمدوا لفتح النون — اقاموا ذلك مقام الاشارة ، فلما اراد ان يعبّر عن المخاطب قرن « أن » بحركة يده في صدر مخاطبه . ثم استغنوا عن ذلك بتمثيل صوت اليد وهو يقرع الصدر في رفق بأخف الحروف النطعية التي ينطلم فيها الصوت بالحنك الأعلى محصوراً باللسان فقال : « أنت » [2]

فاذا فرَّ في نفسك هذا المذهب فأدرْ عليه سائر حروف الحَلْق عالماً بذكره ، وتبين فروق مواقعها وتدبَّر ذلك كل التدبُّر ، تجد المذهب حسناً سهلاً طبعاً لا يتخالف عليك الا قليلاً . ونحنُ نأخذُ الآن في بيان بعض ذلك من جمهور بعض الكلام العربيّ المؤلَّف من ثلاثة حروف أحدُها مُضَعَّف ، ليكون ذلك المذهب اقرب إليك . فان لكلّ حرفٍ معنى ، فاذا نحنُ اخذنا في الثلاثيّ غير المضعَّف أنضفنا ذلك ان نعرضَ لمعنى حروف ثلاثة ، والمؤونة علينا في تقريب ذلك اليك ، انكلفة عليك في تناطي ما تناولك — هي في ذوات الثلاث اشد منها في ذوات الحرفين

وهذه الحروف الحلقيّة لم تجتمع في العربية على التضعيف الا قليلاً لغرب مخارجها كما تلم فقالوا « أحّ » و « أهّ » و « أخ » ولم يقولوا « أع » ولا « أغ » ، ولا « أأ » لأن هذه ثقيلة لا تأتلف . وهذه الثلاثة انما تدل على إشارة وبيان فالصوت فيها يتحمل معنى النفيه . ألا ترى ان قائل « أح » و « أخ » انما يريد التألم والتوجع وابداء ذلك والدلالة عليه ، ولكنهُ مع الحاء يريد التنفيس عن نفسه لما يعاني من شدة الألم والوجع . وكما يكون من صوت المنفيظ المختنق

(١) اجعل نطقك بهذه الكلمة صوتاً مبهماً في الخياشيم غير مبين في نطق « النون » ويكون الفم مطبقاً ، واللسان ساكناً لاصقاً أسفله بالثنايا العليا من الداخل

(٢) اقرع صدرك بيدك ، ومثل صوت التاء بلسانك مع التخفيف تجد الصوت مقارناً والدلالة بينة ، وهذا أحد معاني التاء

والمغموم المفكر فقالوا « الأحيخ : النيظ والتنفس » وإنما هو في الحقيقة صوت المتلىء غيظاً حين يتفرج بهذا الصوت الذي يصدره من جوفه

ثم انظر... فانهم لما ارادوا هذا المعنى قصه من التأوه والنيظ والغم اتخذوا « أخ » والخاء حرف حلقي جافٌّ غليظٌ يكون معهُ الاستعلاء والترفع والاستشراف والاشمئزاز ، فتقول أصحاب اللغة « أخ » : كلمة توجع وتأوّه وغيظ — قول ناقص لا يفضي الى المعنى الحقيقي ، وهو أن التوجع يبين عن اشمئزازه وشموخه وتقذّره ، ولذلك ما ورد في اللغة أن « الأخ » : القذر ، يقول الراجز يذكر سنّه وعجزه وضعفه

وانثنت الرِّجْلُ فصارت خَنَّا وصار وَصْلُ الغانيات أُخَّا

أي قذراً لا يقربْنَهُ ، أو لا يتفرّغنه

وكذلك ترى انهم لما راموا التعبير في الانين قالوا له « أخاء » لِحُشَّة التي فيها ، وهي لينٌ ونعومة ، وهي قابلة للدوران مع الهمزة في التكرار ، لأن الذي يتعلقها يريد معها أن يكررها ويتلوّى معها ، ويعكس لها اضلاعه لما يقاسيه من الألم أو الغيظ ، والخاء لجفوته وانغطاسه في غار الحلق واستلائه لا يطيع على مثل ذلك ، بل اكثر عبارته المقترنة به هي في الوجه والشفتين والأنف ترفع من بعضها وتخفض من بعض

ولكنهم لما أرادوا العبارة عن التوجّع مع لين والضعف والحسرة التي تلحق المتأسف المكسور النفس بغير إضمار للحقد والغيظ كما في « آح ، وأخ » قالوا « أمّ » و « أمّ » و « آمّ » ، وهذا اشارة الى تعب النفس ، واجتماع هذين الحرفين الساليين المطبقين المغولين الضعيفين هو تمثيل لحركة التوجّع من ارداف النفس بريئاً مع انهزام حصر التوجع وانثناء صدره واستلامه للضعف واسترخاء اعضائه وتكسر اجفانه على عينيه

وقالوا ايضاً من ذلك ما يكون في الحيوان من الأصوات للنداء والاستغاثة والتنبيه والتوجع والاشارة وتداخل الاصوات بعضها في بعض وزجر الابل وما الى ذلك « آه » ، يقول الشاعر

إن تَلْقَ عمراً فقد لاقيتَ مُدْرِعاً وليسَ من همِّهِ إبلٌ ولا شاء

في جحفلٍ لجبٍ جمٍّ تتوّاهلُهُ(١) بيضٌ تُسَبِّحُ في حافاتِهِ : آه

(١) في هذه الرواية « صواهله » ، وفي الاصل « بكتيبة تتوّاهل » ، وهذا صواب انشاد الشعر ورسمه ، ان توفق ان الوكتا [illegible] وعربه تراه الشعر

وقد أفرد اصحاب اللغة هذه المعاني التي ذكرناها ، فقالوا : « آه » حكاية لصوت زجر الابل ، وليس كذلك ، وهذا البيت يدل على خلافه كالذي قدمنا في بيان سناه . فأنت ترى ان هذا الحرف « الهمزة » يحمل معهُ اين كان معنى الصوت المفعول الاوَّل ، وهو الاشارة والتنبيه وما الى ذلك من استفهام وتعجب وما يتفرع منها

واما العين والحاء والغين والخاء . فهذه الحروف الاربعة الحلقية لا تصلح للاستفهام والتعجب وما اليه لانها في الحقيقة أحرف غير خالصة بين الحلق والهواء الذي يلاقيها خارج الفم ولما في جهرها — الا الحاء — من التكلف والضغط والعسر في المخرج وارتطامها قبل الهواء ببعض اجزاء الفم عند مقطعها البين عن صداها المنطلق : « إعْ ، إغْ ، إخْ » . والحاء ، وإن كانت أسهل وأخف وأسلم ، فهي مع ذلك مقرونة بحشرجة طفيفة رقيقة غير مُستثقلة مع كف النفس المقذوف عن الانطلاق الى نهاية قصاده بالهواء خارج الفم ، وإنما تصلح للدلالة على نوع الصوت المراد تمثيله ، أو تصوير الصوت مقروناً بالحركة التي تكون معهُ او تلحقهُ من جرَّاه ثم يدعو الى هذه الحركة ، كما قالوا سَنْلاً في الرجل اذا ذرَّعهُ القيء — فمدَّ ذراعيه على الارض وأقبلها بوجهه ونفَضَ اليها رأسه وتمايل على الارض لقيء : « هَاعَ » ، فهذه الاشكالُ حكايةُ صوت القيء أوَّلَ ما يكون بالهاء ، ثم ما يكون من تضرُّب الطعام المائع في الحلق كصوت العين ، ثم انسياق الحنجرة وتصويتها في هذا الانطباق بصدًى كصدى العين

* * *

هذا ونحن لا نستطيع ان نستوفي بك في هذه الكلمة كل الذي نريده من المعاني ، فهو كما ترى باب واسع متداخل يفضي قولٌ منهُ الى قول ، وهو مما لا يمكن حصره في مثل هذه الكلمات . فان فكل جمهور من حروف العربية مجرى ودرباً تتفرع منه شعبه ، ولا يمكن استيعاب ذلك الا بالاطالة والدُّربة والنيل ، وذلك مما يقضي ابتياط النفس وقلَّة الشغل وخلوص التعمل . ثم نحن لا نكتب هذا الا لنقف الخاطر او شبه ذلك ، فاذا أردنا ان ندخل احدًا من هذا الباب — ونحن ما نحن — ابتدأ الجهد بنا دون ذلك . فاقبل بعض العذر ، فقد بعض الزلل ، وكذلك نستطيع ان نبين لك بعض الابانة عن الاصوات وحكاياتها أحسنها التي جعلتها اللغة لها في لسان الانسان والحيوان والجماد ، وكيف تدور فيها هذه الحروف الخافية دوراناً طبيعيًّا دالاً صريحاً مندرجاً على بيان نوع الحكاية او التمثيل ... ، فكأنك به